

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا خلال القرن 19م في عيون الرحالة العرب

د. دوحه عبد القادر

جامعة خميس مليانة

البريد الإلكتروني: aek.douha@gmail.com

تاريخ القبول: 2017/02/15

تاريخ الاستلام: 2017/01/10

الملخص:

لقد كانت رحلات المغاربة إلى مختلف الدول الأوروبية، العامل الأساسي الذي أدركوا من خلاله الفرق بين ما وصلت إليه أوروبا من تمدن وحضارة في شتى المجالات، والوضعية المتردية التي تعيشها المجتمعات العربية. هذه الوضعية المتردية التي عاشتها المجتمعات العربية، هي التي حددت نظرة العرب إلى أوروبا وولدت في أنفسهم سؤالاً هاماً، تمثل في البحث عن الوسائل التي تكفل عبور الفجوة بين التخلف والتقدم، هل يكون باحتذاء النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها؟ أم يكون بإحياء التراث العربي؟ أم أن الحل يكمن في التوفيق بين النموذج الغربي والتراث العربي الإسلامي؟.

الكلمات الدالة:

أوروبا- الرحلات- العرب- القرن 19م.

العنوان بالإنجليزية:

Economic and social life in Europe during the 19th century In the eyes of Arab travelers

.Abstract:

It was the journey of Moroccans to various European countries, the main factor in which they realized the difference between the European civilization and civilization in various fields, and the deteriorating situation experienced by Arab societies. This depressing situation in the Arab societies has defined the Arabs' view of Europe and has given rise to an important question in their search for ways to bridge the gap between underdevelopment and progress. Is it by following the Western model in

politics, economy, culture and others? Or is it reviving Arab heritage? Or is the solution to reconciling the Western model with the Arab-Islamic heritage?

Key words:

Europe - trips - the Arabs - the 19th century

لقد كانت رحلات المغاربة إلى مختلف الدول الأوروبية، العامل الأساسي الذي أدركوا من خلاله الفرق بين ما وصلت إليه أوروبا من تمدن وحضارة في شتى المجالات، والوضعية المتردية التي تعيشها المجتمعات العربية. هذه الوضعية المتردية التي عاشتها المجتمعات العربية، هي التي حددت نظرة العرب إلى أوروبا وولدت في أنفسهم سؤالاً هاماً، تمثل في البحث عن الوسائل التي تكفل عبور الفجوة بين التخلف والتقدم، هل يكون باحتذاء النموذج الغربي في السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها؟ أم يكون بإحياء التراث العربي؟ أم أن الحل يكمن في التوفيق بين النموذج الغربي والتراث العربي الإسلامي؟.

إن الإجابة على ذلك السؤال تقتضي منا عرض وتحليل ما ورد في "مؤلفات الرحالة العرب" والتعرف على نظرتهم لأوروبا في المجالين الاقتصادي، والاجتماعي.

1-النظام الاقتصادي الأوروبي

شغلت القضية الاقتصادية في الغرب الأوروبي جانبا هاما من نظرة الرحالة العرب في القرن التاسع عشر. وتناول هؤلاء الرحالة في مدونات رحلاتهم عدة جوانب من الحياة الاقتصادية، والتاريخ الاقتصادي للممالك الأوروبية، واهتموا خاصة بالنشاط الاقتصادي، ودور الدول فيه.

أ-النشاط الاقتصادي

في البداية نبدأ باستعراض نظرة أول رحالة عربي زار أوروبا بعد الحملة الفرنسية على مصر، إنه رفاعة رافع الطهطاوي الذي خصص فصلا كاملا من كتابه: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" حول «كسب مدينة باريس ومهارتها»⁽¹⁾، متكلما عن الصناعة والتجارة، وطرق المواصلات، التي قال عنها بأنها السبب الرئيسي في غنى الفرنسيين. وأشاد الطهطاوي في أهل باريس «محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة وذم الكسل والتواني»⁽²⁾، مثلما أشاد بازدهار التجارة، منوها بدور

الجرائد في التعريف بالصناعة وتنشيط مختلف المجالات التجارية فقال: « ومن الأمور النافعة في التجارات (الجرنالات)، فيكتبون فيها كثيرا من البضائع النافعة والجيدة والمصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ».⁽³⁾

و بالإضافة إلى العوامل السالفة الذكر، التي اعتبرها الطهطاوي من الأسباب الأولى في غنى الفرنسيين وحسن تدبيرهم، فتدبير المصاريف والاقتصاد فيها يشكل عماد الثروة كلها « ومن جملة أسباب عنى الفرنسية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفردا من تدبير الأمور الملكية... ».⁽⁴⁾ وجملة ما يمكن استخلاصه من نظرة الطهطاوي، إحساسه بأن المدنية تستند على أساس مادي لا بد منه، قوامه الصناعة والزراعة والتجارة. ولم يشذ محمد بيرم الخامس بنظرته إلى الاقتصاد الأوروبي عن سلفه، فلغت انتباهه هو الآخر أخلاق الإيطاليين وجددهم في العمل والاشتغال. كما لا حظ كثرة الطرق في إيطاليا ولا حظ دورها الايجابي في المبادلات التجارية ونقل السلع من مدينة لأخرى، فقال « أن من أعظم أسباب الثروة واتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل البضائع ».⁽⁵⁾ غير أن صاحب صفوة الاعتبار تعمق في تحليله للنظام المالي في مملكة إيطاليا فتطرق إلى نظام عقد الشركات التجارية بين الأشخاص، و الذي كان حسبه سببا في اتساع التجارة، لأن أموال الشخص وحده لا تكفي لمزيد الاتساع في التجارة. وهو الشيء الذي لم يلحظه في بلده.⁽⁶⁾

و مما تنبه إليه بيرم كذلك، قضية تكوين وجمع رأس المال باعتباره أحد أركان الثروة الوطنية، فأشاد بدور البنوك في الاقتراض الذي ساعد على نمو الاقتصاد إلا أنه استدرك فأشار إلى سلبيات ذلك وأصدر حكمه على هذه الطريقة التي لم يستحسنها باعتبارها تؤول إلى إفلاس الكثير.⁽⁷⁾ غير أنه في المقابل مدح التعامل بالحوالات، ونوه بالبورصات التجارية التي وجدها تعج بالسماسة لكنه قال بأن: « الكثير من التجار يفلسون في تلك المتاجرة ». وأرجع ذلك إلى أن البيع والشراء فيها لا يكون يدا بيد.⁽⁸⁾ ويظهر بيرم من خلال انتقاداته هذه إلى أنه لا يريد من المسلمين اقتباس مثل هذه الأنظمة التي اعتبر أنها تخالف الشرع. وكان ما اكتشفه محمد السنوسي من تراتيب العملة والنقود قد جعله يقيم مقارنة للوضع الذي كانت عليه أمور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ، فمدح التراتيب القاضية بصيانة النقود من الغش،

وفي هذا الصدد قال: « ولقد أخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات فلما صرت لنابلي ورأيت أوراق العملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الأسواق بقيمتها، أردت استبدال الفضة بالأوراق فلم يمكن ذلك إلا بإعطاء صرف قدره اثنان في المائة. أما الذهب فإنه والأوراق سواء تستبدل أيهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف. وأين هذا من تجار الدولة في غش النقود لتحصل على ربح يضيع بسببه على الأهالي في كل يوم أضعافه المضاعفة».⁽⁹⁾

وإذ كان أحمد فارس الشدياق قد لا حظ الفقر والفقر في بعض أرياف مملكة الإنجليز فاكتفى بالقول « أن وجود الغني والفقير في الدنيا لا بد منه كوجود الجميل والقبيح »، فإنه انتقد مغالاة الإنجليز في العمل وسعيهم الشديد وراء الكسب وماديتهم فقال: « فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقي في العلوم فالجهل خير، فإن أهل بلادنا والحمد لله، على جهلهم، ما يعرفون شيئا من هذه الفنون الكيماوية، والأخلاق غير المتناهية... » التي يلجأ إليها التجار ليغشوا الزبون ويحصلوا على مزيد من الربح.⁽¹⁰⁾ وعلى العكس من ذلك فإن أحمد بن أبي الضياف، ذكر بعد أن رأى المشير أحمد باي آثار العمران والثروة والطرق المفعمة بالتاجر أنه تحقق له بعد ذلك كله معنى قولهم: « المتجر يقطع سلاسل الفقر». هذا الفقر الذي أقر بعدم وجوده في قوله « لا تكاد ترى واحدا بغير شغل ».⁽¹¹⁾

و تظن ابن أبي الضياف إلى شيء مهم في الحياة الاقتصادية للدولة عندما أشار إلى موضوع الاستثمارات الاقتصادية، فلاحظ أن الأوروبيين لا يستعجلون نتيجة العمل ويبينون أهدافهم في المستقبل فهم مثلا « يصرفون الأموال لفائدة يمكن حصولها بعد سنين ». وبهذا العمل يحققون القوة الاقتصادية والاستقلال عن الغير. واعتبر صاحب الإتحاف أن هذا « من أعظم أسباب العمران والثروة... » ولذلك تأسف على غياب هذه الإستراتيجية في السياسة الاقتصادية في بلده.⁽¹²⁾

و قبل استجلاء نظرة خير الدين الاقتصادية إلى الغرب الأوروبي ومقارنتها مع نظرة الرحالة الآخرين، لابد أن نشير إلى أن خير الدين في كتابه لم يعزل الاقتصادي عن السياسي وحتى الاجتماعي والثقافي بحيث ربط بين النشاط الاقتصادي ورأس المال من جهة، ودور الدولة في تنظيم ذلك الاقتصاد من جهة أخرى،⁽¹³⁾ فنظرتة نابعة من أرضية سياسية واضحة المعالم والمكونات. إذ أن تجاربه داخل الدولة الحسينية وقراءاته وسفرائه كلها مجتمعة ومتفاوتة الأهمية، عناصر تنوع

وتوسيع مجال النظر في الجانب الاقتصادي، الذي تحدد من خلاله زوايا مختلفة ومرتبطة في نفس الوقت، شملت الاقتصاد كمسألة إنسانية أولا، ثم الاقتصاد التونسي في القرن التاسع عشر.

لقد قدم خير الدين عرضا شاملا عن الحضارة الأوروبية منذ شارلمان⁽¹⁴⁾ و خاصة فيما يتعلق بتطور الاقتصاد بأوروبا وازدهار اقتصاديات الدول الأوروبية، من زراعة و صناعة و تجارة و خدمات معلقا عن ذلك الازدهار بقوله: « وليعلم الناظر أن هذه الزيادة [في الدخل القومي] إنما هي من نمو العمران والثروة وما يدخل في العصابة الفرنسية من الأفراد والأجانب ونحو ذلك...»⁽¹⁵⁾.

نظر خير الدين إلى الاقتصاد نظرة المفكر الواعي، فرآه يقوم على مقومين أساسيين هما العمل و رأس المال.⁽¹⁶⁾ وقد ناقش أهمية كل منهما في الدول الأوروبية في إطار نظام الحكم. فإذا كانت ثروة الأفراد حسبه تقاس بما يملك كل منهم، فإن الثروة العامة لا تنتج إلا بالعمل، والعمل هو تلك القيمة المضافة إلى رأس المال المستثمر وبه يتحقق امتياز دولة على أخرى. واستخلص خير الدين من خلال تحليله للإمكانيات الاقتصادية لمختلف الدول الأوروبية التي زارها أن الإمكانيات الطبيعية متاحة في كل أنحاء العالم ولو بمستويات متفاوتة، و لكن الإفادة من هذه الإمكانيات الطبيعية بالعمل، وهو ما جعل دول العالم تتفاوت في الإنتاج والثراء والرفاهية والتقدم بدرجة أكبر وأوضح. يقول خير الدين بأن الممالك الأوروبية لم تبلغ تلك الدرجة من التقدم والرفي إلا عن طريق « تسهيل طرق الثروة، واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة...»⁽¹⁷⁾.

قسم خير الدين النشاط الاقتصادي إلى مجالات مختلفة ومتفاوتة الأهمية ومرتبطة في آن واحد هي: البناء والعمران، الغرسة والفلاحة، الصناعات، الحرف والتجارة والمتجر والكسب، وتلتقي هذه الأبعاد الاقتصادية حسبه على اختلافها، في محور اقتصادي مركزي واحد هو رأس المال والمال عموما.⁽¹⁸⁾ ولذلك ربطه بالنظام في الدولة وناقشه في إطار الحكم الرشيد، الذي يقوم بإتاحة الحرية الاقتصادية، وتنظيم التعامل الاقتصادي، ووضع البرامج الاقتصادية، وتوجيه الإنفاق إلى المشروعات العامة. وذلك على غرار الدول الأوروبية التي تعتمد لا مركزية التسيير فتضع « في كل مركز إباله (ولاية) واليا عموما يكلف بتطبيق القوانين و أوامر الدولة ... وله النظر على نمو الفلاحة والتجارة وسائر

الصناعات...»، مقارنا ذلك مع النمط الذي سارت عليه الدولة العثمانية الذي كانت تحدد فيه اختصاصاتها في الدفاع الخارجي والأمن الداخلي وإقامة النظام الإداري الهادف إلى جمع الضرائب.⁽¹⁹⁾

ب- دور الدولة في الاقتصاد:

سجل ابن أبي الضياف بفكره الثاقب دور النظام السياسي في الميدان الاقتصادي فتعجب من انعدام المتظلمين من كثرة المغارم والمكوس، ففسر السر في ذلك بنفسه، بأن هذه المغارم والمكوس «غير مجحفة وأهلها على يقين بمقاديرها وأنها تصرف في مصالحهم على اختلاف أنواعها».

وفي علاقة النظام السياسي بالاقتصاد دائما، يروي بيرم الخامس تفاصيل زيارة قاداته إلى مقر مجلس النواب الإيطالي. وصادف ذلك اجتماعه لبحث إحدى القضايا المالية، تعلق بتطلب وزير المال بزيادة دخل الدولة بما يتناسب مع المصاريف وذلك عن طريق دفع الضريبة على السلاح. فسجل بيرم بدقة تلك المشادات التي وقعت بين وزير المال وأحد النواب الذي اتهمه بإفقار الشعب بالضرائب. واستنتج بيرم من ذلك الدور الكبير الذي يقوم به رجال السياسة والحكم في البلاد الأوروبية في سبيل التنمية الاقتصادية، التي لا يمكن أن تتم بزيادة الضرائب والأداءات على الشعب مما يؤدي إلى إفلاسه، وبالتالي عزوفه عن العمل وتحقيق المزيد من الثروة.⁽²⁰⁾

وشغل نظرة محمد السنوسي ما أكتشفه من أنظمة النقود و العملة بالبلاد الأوروبية و خصوصا إيطاليا التي زارها المؤلف، وهو ما دفعه لعقد مقارنة مع الوضع الذي كانت عليه أمور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ، فمدح الأنظمة القاضية بصيانة النقود من الغش في نابولي الإيطالية واستنكر ما تقوم به الدولة التونسية من غش، وتزوير للنقود لتحصل على ربح وصفه السنوسي بقوله: « يضيع بسببه على الأهالي في كل يوم أضعافه المضاعفة ».⁽²¹⁾

أما فيما يخص الضرائب فقد أكد خير الدين على حق الدولة في الجباية⁽²²⁾ المقررة، لكن هذا التصرف يجب أن يقوم على أساس عدم استبدادها في ذلك، ثم يشير بعد ذلك إلى مملكة إنجلترا، فأكد أن مسؤولية سن الأداءات مسؤولية مشتركة بين الدول من جهة و بين البرلمان من جهة أخرى « وأعلم أن الدولة الإنجليزية بمقتضى قوانين الملكية لا تطلب من الأهالي أداء سنويا إلا المصاريف اللازمة لصالح

الدولة ... وتحت نظارة البرلمان الكبير...» وهو تعليق لا يخلو من تلميح. فكأنه يلح على ضرورة إعادة النظر في الإصلاحات التي فشلت باندلاع الثورة على الجبائية في تونس سنة 1864م، ولكأنه أدرك أن مأساة القرن التاسع عشر بتونس هي كامنة في السياسة الجبائية الجائرة التي أدت إلى العصيان والتمرد في وجه الدولة.⁽²³⁾ و يدعم ذلك ما نوه به خير الدين عندما تحدث عن مملكة النمسا التي مدح فيها رواج الصناعات وكثرة المصانع والآلات. إذ أشار إلى عملية التصويت في المجالس على القوانين من طرف النواب وذلك بعد المفاوضة وموافقة غالبية الأعضاء لاسيما تلك القوانين التي تتعلق بتحديد الميزانية السنوية للدولة أو فيما يخص السياسة الجبائية.⁽²⁴⁾ ولا حظ خير الدين دور وزير المالية في البلدان الأوروبية هو تسيير الشؤون الاقتصادية فقال بأنه هو «المكلف بفرض القوانين المتعلقة بالاقتصاد و ضبط مداخل الدولة وصادراتها وإدارة ديونها وتوزيع المرتبات » ثم أضاف إلى جانب هذه المهام: « له الوصاية على البنوك والمصارف ويمضي مع الملك جميع الأوامر المتعلقة بوزارته ».⁽²⁵⁾

وإذا كان بيرم الخامس قد لفت انتباهه وهو يتجول في أحد المعارض الإيطالية تقدم إيطاليا في الصناعات وسجل انطباعه عن هذه المملكة بما يفيد أنها صارت قادرة على الاستغناء بنفسها عن سائر الحاجات الضرورية وحتى الكمالية، فيما يعرف بالاكتماء الذاتي للدولة.⁽²⁶⁾ لم يغفل خير الدين هذه القضية بل لا حظ اتجاه الأوروبيين إلى تصدير فوائض إنتاجهم وندد في هذا الشأن بأولئك الذين يتهافتون— من العرب— على ما تنتجه المصانع الأوروبية بدون أن يدركوا مدى الضرر الذي يحدثه هذا السلوك على المستويين الاقتصادي والسياسي، فحرمان صناع البلد من ثمرة جهودهم بسبب كساد بضاعتهم من جراء إقبال الناس على المصنوعات الأجنبية يلحق ضررا كبيرا لهم، ينعكس سلبا على حالة البلاد ككل. « فإن زادت قيمة الداخل والواردات على قيمة الخارج والصادرات، فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة » أما عن المستوى السياسي فإن البلاد إن اعتمدت في تلبية احتياجاتها الأساسية على الخارج، فإن ذلك سوف يضعف من قوتها ويشكل خطرا على استقلالها.⁽²⁷⁾

وفيما يخص قضية الاقتراض والديون التي سجل أنها تترتبت على الدول الأوروبية، فهو يرى في ذلك أن هذه الديون لم تنشأ عن عدم ضبط سبب الاقتراض ولا عن سوء التدبير، وإنما يكون ذلك إذا حدث سبب موجب للاقتراض، لكن لن يكون ذلك إلا بعد عرض القضية للمجلس الوحيد الذي له

الحق في أن يرخّص للدولة للاقتراض ويعلن المبلغ للعامة، وتدفع الدولة نسبة فائدة لمن تقتترض منه سواء من الأهالي أو من الأجانب. وينبه خير الدين إلى شيء مهم عندما يشير إلى اختلاف فائدة الديون من دولة لأخرى ويقول بأن « فوائد دين كل دولة عنوان على حسن إدارتها و معاملتها ».⁽²⁸⁾ أما موقف خير الدين من الاقتراض، بالنسبة للدول العربية وبالنسبة لتونس كذلك، فقد خصه في قوله: « الأفضل أن ندفع غالبا ثمن اقتراض نقترضه في بلدنا ونحافظ بذلك على حريتنا من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا ». ويظهر من ذلك أن خير الدين يميل إلى الاقتراض الداخلي وينبذ الاقتراض الخارجي الذي يسلب استقلال الدولة.⁽²⁹⁾ وخلاصة القول أنه إذا كان الطهطاوي قد نوه بأن التطور الاقتصادي يستلزم التطور السياسي « فمتى تقدمت المنافع العمومية استلزم ذلك تقدم المنافع السياسية »⁽³⁰⁾ فإن خير الدين التونسي قد ربط بين الحكم الصالح والازدهار الاقتصادي، هذا الازدهار الذي ينعكس بدوره على الجانب الاجتماعي.

2-النظام الاجتماعي الأوروبي

لم تقتصر النظرة العربية للغرب الأوروبي في القرن 19م على المجالات السياسية والاقتصادية فقط، بل شملت أيضا الحياة الاجتماعية في ممالك الغرب الأوروبي، حيث تطرق الرحالة العرب إلى جوانب اجتماعية عدة مثل وصف العادات والتقاليد الأوروبية، بالإضافة إلى العدالة الاجتماعية وقضية المرأة التي نالت كذلك جانبا من الاهتمام.

أ-العادات والتقاليد الاجتماعية:

سجل الرحالة العرب انطباعاتهم العديدة التي اتسمت بالإعجاب تارة وبالاشمئزاز وعدم الرضا تارة أخرى. فهذا رفاعة الطهطاوي يتجول في شوارع البلاد الفرنسية ويبدي إعجابه بأهل باريس ويندهش من كثرة المراكز المختصة في مساعدة الضعفاء والمساكين،⁽³¹⁾ رغم أنه أشار في بداية رحلته إلى شح وبخل الفرنسيين لما قارنهم مع العرب وكرمهم وجودهم.⁽³²⁾ وهو ما أشار إليه الشدياق بعد ذلك بحوالي عشرين سنة عندما سافر إلى فرنسا واستقر بها وعاشر أهلها حيث تحدث في كتابه في فصل (خواطر فلسفية) عن العادات القبيحة التي أتصف بها الفرنسيين، كما لم يعجبه بخلهم.⁽³³⁾

ويبدو أن كل من الطهطاوي و الشدياق اتفقا في تفسيرهم لهذه الظاهرة الناتجة حسبهم عن انصراف الغرب إلى للتصرفات المادية البحتة، في حين اتصف العرب والمسلمين حتى ذلك الوقت بأجوائهم الروحانية.⁽³⁴⁾ ولفت انتباه بيرم الخامس مغالاة الإنجليز في عقائدهم وتعصبهم لديهم عكس المسلمين في تسامحهم، عندما لاحظ إغلاق التجار لمحالتهم يوم الأحد فقال « أن من فتح حانوته عوقب »، واعتبر ذلك تناقضا مع ما ينادون به من حرية.⁽³⁵⁾

كما لاحظ محمد السنوسي أيضا خبث نفوس سكان نابولي التي مر بها أثناء سفره إلى إيطاليا، فوصف المدينة بقوله أنها كانت « مركزا مستهوا للسرقات والمفاسد». وأوعز صاحب الرحلة الحجازية هذه الظاهرة إلى كثرة السكان واختلاطهم ببعضهم البعض حتى صار الساكن لا يعرف من يسكن بجواره على حد تعبيره.⁽³⁶⁾

لم يكن محمد الحجوي متفرجا وشاهدا سلبيا فهو (التاجر والموظف المخزني والفقيه المجتهد). وهذه الأبعاد الثلاثة المتفاعلة والمتصارعة في شخصيته، هي التي تكسب شهادته في تلك الفترة قيمة. فقد أعجب الحجوي أيم إعجاب بالمعاملات التجارية وبتقاليد البيع والشراء في المدن الأوروبية التي زارها في فرنسا وانجلترا، فالتجارة تقتضي من صاحبها النظافة وحس الأناقة وتوافر الحس الترتيبي، كما تقتضي منه أيضا عدم الغش والحرص على النظافة: « يبهت طرفك في نظارة المحل وزخرفته وجمال منظره، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها: كل جنس مع جنسه ونوع من نوعه... وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا طريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش وأخلاق كريمة وتربية حسنة وصبر وحذق ، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا أو غاليا» ثم يبدي ملاحظة هامة يتحلى بها الإنجليز مفادها: « القليل في الكثير كثير» و« صدق المعاملة والقناعة بالربح القليل لبيع العدد الكثير».⁽³⁷⁾ وكان الحجوي في أتم الاستعداد لقبول التسليم بواقع فرنسا: فهو يذكرها الذكر الحسن كله، وهو يستلذ ترديد شعارها الثلاثي(الإخاء- الحرية -المساواة) حين يذكر باريز« معدن المدنية العصرية...والحرية المنظمة والأخوة المحكمة والمساواة الملزمة».⁽³⁸⁾ أما خير الدين التونسي وبحكم وظائفه في الدولة كرجل سياسية ودبلوماسية كان يرسل من طرف الحكومة التونسية للقيام ببعض الأعمال الدبلوماسية، فكانت كل اتصالاته ولقاءاته تتم مع كبار رجال الحكومات الأوروبية وعلمائها وأصحاب الرأي فيها، كما أن

الأوساط التي كان يقيم فيها خير الدين لم تكن تخرج عن عواصم تلك البلدان أو بعض المدن الكبرى، في إطار زيارته الرسمية لتسوية مسائل تجارية أو حربية أو إبرام معاهدات، وفي مجملها لا تتعدى مشاهدة الأوساط الحكومية في البلد الآخر.

فرحلات خير الدين إلى الممالك الأوروبية كانت محددة بمهام مسبقة ومن هنا كان معزولا في ترحاله وتجوّاله عن الاتصال المباشر بالجمهور الموسع، على نقيض أصحاب الرحلات الأخرى الذين كانوا أحرارا في تجوالهم ومخالطتهم للجمهور والتعرف إلى أخلاقه وعاداته ومظاهر حياته اليومية عن قرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن سعة فكر خير الدين وإحساسه بمسؤوليته كعربي يحاول إخراج بلاده من أوضاعها المتدهورة، لم تشغله العادات والأخلاق والمظاهر، وإنما انصبّت بالخصوص على البنى الأساسية للحضارة في تلك البلدان التي ولدت لديها الرغبة في الاستفادة منها. فنظرة خير الدين إذن انصبّت على كل ما من شأنه أن يؤثر في المقومات الأساسية لبنية الدولة، وامتداداتها داخل المجتمع على غرار قضية القضاء والعدالة الاجتماعية.

ب-العدالة الاجتماعية:

لقد خص خير الدين التونسي للعدالة حيزا هاما من تفكيره ونظرتيه إلى الغرب الأوروبي فاق بكثير ما خصه الرحالة الآخرون إلى هذه القضية. وذلك باعتبار أن خير الدين راح يبحث عن منشأ تلك القوانين التي تخلق العدالة، وكيفية تطبيقها، والمؤسسات والهيكل التي تتولى ذلك.

ولعل ملاحظة خير الدين الأولى في هذا الجانب انصبّت على مملكة إنجلترا، التي سجل فيها تلك العلاقة الوثيقة بين استتباب الحياة الاجتماعية وطرق اشتغال المؤسسات القضائية مقسما إياها إلى طريقتين أساسيتين: الأولى طريقة اشتغال المحاكم في حلها للقضايا المنازعات التي تعرض عليها، والتي اعتبر خير الدين أن « حكمها يقتصر على رفع المقدار الحاصل من الضرر أي الحقوق الثابتة »⁽³⁹⁾، أما الطريقة الثانية: فتتمثل في عمل المجالس القضائية التي قال عنها أنها: « تحكم بأخذ الحذر اللازم منها لعودة المصرة في المستقبل » ثم أضاف شارحا ذلك: « إنها تحيل نظرها إلى المستقبل فتمنع المضرات الواقعة والمتوقعة ».⁽⁴⁰⁾ و يظهر من كلام خير الدين أنه اعتبر قوة الجهاز القضائي في الدولة بمثابة الحصانة المستقبلية والدائمة للمجتمع من الانحرافات.

تعرض خير الدين إلى امتداد الجهاز القضائي في عمق المجتمع وتوزعه على كل الولايات ممثلاً في محاكمه ومجالسه التي تنتهي جميع أحكامها الصادرة إلى المجلس الأعلى بعاصمة المملكة، وهذا المجلس لا ينظر في القضايا المرفوعة إليه من الناحية الموضوعية وإنما من ناحية تطبيقها للقوانين السارية. وإن أعترض هذا المجلس على قضية من القضايا، تعاد إلى المحاكم للنظر فيها من جديد. ونكتفي هنا باقتباس شيء مما قاله عن هذا المجلس « وصورة نظره أنه لا يتأمل في أصل النازلة من جهة ثبوتها أو بطلانها، وإنما ينظر في أعمال المجلس أكانت على مقتضى القانون أم لا... »⁽⁴¹⁾ وأعتبر خير الدين أن ذلك هو الكفيل بتحقيق العدالة بين أفراد الأمة. أما قضية استقلال القضاء عن الدولة، أشار إليها خير الدين عندما زار إنجلترا وتجول في محاكمها ومجالسها ولاحظ أن القضاة ورجال القضاء بصفة عامة لا يمكنهم الجمع بين وظيفتين في نفس الوقت، وظيفة القاضي من جهة والعضوية في البرلمان من جهة ثانية. فقال « إن من مزايا الأمة الإنجليزية، تحسين الإدارة الحكمية في فصل النوازل باستقلال مجالس الحكم ومنع أعضائها من الدخول في خدمة البرلمان ».⁽⁴²⁾

غير أن خير الدين لاحظ أن القوانين التي يعتمد عليها القضاء الإنجليزي ليس مقيدة ومضبوطة مثلما جرت عليه عادة الفرنسيين، الذين يدونون جميع قوانينهم في دستور واحد « أحكامهم ليست محصورة بكتاب أو تقييد... » و (إنما)... تستند إلى القانون العام المؤسس على مجاري العادات و تأخذ من الأحكام التي جرى بها العمل ».⁽⁴³⁾ ويبدو أن خير الدين لاحظ أن إنجلترا تعتمد في تشريعاتها على العرف والسوابق القضائية وهو الشيء الذي يتنافى مع قاعدة سمو الدستور في الدولة الفرنسية. ورغم أن بيرم الخامس أشار إلى هذه النقطة التي وصفها « بالعادة الغربية » وانتقدها معتبراً إياها بأنها تزيد من نفوذ الطبقة العليا معللاً ذلك بعدم علم المحكومين بتلك القوانين مسبقاً، كما أنها تضع القضاة أمام عدة اختيارات فيأخذون منها ما شاءوا. مما يحول دون تحقيق العدالة في الأحكام، إلا أن خير الدين أعجب بذلك وأعتبره مؤشراً على مدى حيوية المجتمع الإنجليزي وسعيه الدءوب نحو التغيير والتطور.⁽⁴⁴⁾

ولم تنفرد إنجلترا بهذه المزية وحدها، فحتى روسيا التي أنتقد فيها خير الدين ظاهرة الطبقة في المجتمع وما يتمتع به الأعيان ملاكي الأراضي من سلطة وخصها بهذه الصفة دون سائر الممالك الأوروبية،⁽⁴⁵⁾ نوه فيها باستقلال القضاء عن السلطة السياسية قائلاً لقارئ كتابه: « اعلم أن

التريبونالات (المحاكم) كلها مستقلة ولا تسلط لوزراء الحكم عليها إلا بتحسين الإدارة الحكيمية وتسمية الإحكام⁽⁴⁶⁾.

ولم يكتف خير الدين بالتنويه بالاستقلالية التي تعتمدها مملكة روسيا فيما يخص الجانب القضائي، بل ذهب بعيدا بالإشارة إلى بعض القوانين الجديدة التي دخلت حيز التطبيق والتي تزامنت مع زيارته إلى هذه البلاد، وعلى الخصوص قانون إبطال الحكم بالإعدام فقال: « أن من مستحدثات قوانينهم إبطال الحكم بالقتل وكذا بالضرب إلا في نوازل نادرة، وقد عوضت هاته العقوبة مع عقوبات أخرى بالنفي إلى سيبيريا⁽⁴⁷⁾ وإبطال الحكم بالإعدام ملاحظة هامة جدا من قبل مسؤول تونسي في القرن التاسع عشر، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار ما كان يجري في تونس من إعدام للأشخاص بسبب موجب أو بدونه.

كما لم يغفل خير الدين اهتمامه ببعض الأنظمة ذات الطابع الاجتماعي التي تعتمدها الدول الأوروبية لتحقيق العدالة بين الأفراد وخاصة ما يتعلق بالحماية الاجتماعية ونظام التقاعد. فخير الدين التونسي بحكم اشتغاله في وظائف سياسية وعسكرية، لم يعجبه ما يعانيه الذين خدموا الدولة التونسية سنوات عديدة، ولما عجزوا عن الخدمة، أبعادوا من مناصبهم وانقطعت رواتبهم التي كانوا يعتمدون عليها في معيشتهم وهمشوا. فكأنه بذلك ينتقد هذه الظاهرة ويدعو المجتمعات الإسلامية إلى اقتباس تلك الأنظمة عن أوروبا، قائلا في ذلك « ومن عوائد الدولة الأوروبية أن من خدم الدولة ثلاثين سنة بوظيفة سياسية أو عسكرية يرتب له مرتب مدة حياته بحسب ما بلغه من المراتب⁽⁴⁸⁾ ». وهذا المرتب في نظر خير الدين يحفظ للموظف كرامته بعد سنوات الخدمة التي قضاها في الدولة.

لفت انتباه رحالي المغرب الأقصى كذلك، ظاهرة التكافل والتعاضد الاجتماعي داخل أوروبا. فأشار الغزال إلى وجود اثنتي عشرة مؤسسة اجتماعية في مدريد وحدها. وتسهر هذه الدور على التكفل بالعجزة والمعوزين، وتقدم لهم الخدمات الصحية اللازمة: « وقد ذكروا لنا أن هذا "الاسبital" من اثني عشر.. بهذه المدينة. » ولاحظ أن القيمين على هذه المؤسسات يرعون المرضى والعجزة ويحسنون إليهم ويقدمون لهم الأكل و الشرب، ويسهرون على تنقية أثواب هؤلاء وتطهير أماكنهم.⁽⁴⁹⁾

ولعل ابن أبي الضياف أشار إلى هذه النقطة لما زار أحد المراكز الاجتماعية في الدولة الفرنسية رفقة المشير أحمد باي فقال عنه بأنه « موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه... ولمن طعن في السن وعجز عن الخدمة من العسكر». ثم أضاف قائلاً عن المتواجدين فيه: « تجري عليهم جرايات واسعة ونفقة لها بال من أحسن ما يتمنى الإنسان ».

غير أن صاحب الإتحاف لم ينظر إلى ذلك نظرة اجتماعية بحتة. تراعي فيها الدولة تحقيق كفالة اجتماعية للفئات العاجزة من سكانها، وإنما كانت نظرتة نظرة عسكرية تجلت في قوله: « وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حيث يرون مآل العاجز منهم وأنه لا يترك نسيا منسيا...»⁽⁵⁰⁾ على عكس خير الدين التونسي الذي نظر إلى القضية من زاوية اجتماعية مرتبطة بنظام الحكم في الدولة. وذلك على غرار نظرتة للمرأة التي أعطى لها مكانتها الاجتماعية وأعتبرها جزءاً لا يتجزأ من الهيكل الاجتماعي للدولة. لاسيما وأن اختلاف وضع و مكانة المرأة في المجتمعات الأوروبية عن وضعها و مكانتها في الشرق الإسلامي شغل اهتمام الكثير منذ الحملة الفرنسية على مصر.

ج- المرأة الأوروبية:

تحددت نظرة العرب-عموما- إلى المرأة الأوروبية بالنظر إلى علاقاتها بقضايا السلوك الفردي والاجتماعي. ومثل عبد الرحمان الجبرتي منطلق هذه النظرة، حيث أدان خروج المرأة الفرنسية إلى الحياة العامة واختلاطها مع الرجال جملة وتفصيلا، والعبارات التي أوردها بهذا الشأن تعكس الموقف العام في الشرق الإسلامي آنذاك من قضية السفور.⁽⁵¹⁾ غير أننا إذا حاولنا عقد مقارنة بين الرحالة المشاركة والرحالة المغاربة بخصوص موضوع المرأة الأوروبية، سنجد التباين واضحا، إذ وجد الطهطاوي لزاما عليه أن يوضح هذه القضية (التي طرحها الجبرتي) من جوانبها المختلفة ولا يكتفي بالأحكام العامة البسيطة كما فعل الجبرتي فذكر أن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك للتربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشربك في المحبة، والالتئام بين الزوجين»⁽⁵²⁾ فالعفة عند الطهطاوي نتيجة التربية، أما خروج المرأة إلى الحياة الاجتماعية فتعد قضية أخرى.

ولاحظ الطهطاوي أن مشاركة المرأة الفرنسية في الحياة العامة يأخذ عدة أشكال، من بيع وشراء إلى اشتغال في سائر النشاطات، وقد لفت الطهطاوي وجود المرأة إلى جوار الرجل في الأماكن العامة، مثل المقاهي والمنزهات ومحال الرقص. وكان وجود المرأة عاملة في إحدى المقاهي ظاهرة طريفة سجلها الطهطاوي « وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها، فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب، والقهواجية امرأة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة »⁽⁵³⁾ و على العموم، فالفرق الشاسع بين المرأة الأوروبية المتعلمة والمتحررة والمرأة الشرقية المتحجبة الجاهلة في القرن التاسع عشر، جعل و بدون شك-الطهطاوي والشدياق في المشرق العربي- يعجبون بالمرأة الأوروبية. لكن الأمر ليس هو نفسه بالسبب للرحالة المغاربة.

فقد لفت انتباه الشدياق كثرة النساء في شوارع لندن وتحررنه فقال يصف لندن « أبت فيها النساء أكثر من الرجال و أجمل »⁽⁵⁴⁾ واستغرب محمد السعيد بن علي شريف عدم مخالفة الرجال من كل ما يطلبه، أو يصدر منهن فيقول: « وأما النساء فإنهن سيدات رجالهن، وهم كعبيدهن تحت أمرهن، ولم يسعفهم مخالفتهن قط، وطرح في آخر كلامه استفهاما حول ذلك فقال: « والله أعلم كيف و أنهم على رأي نسائهم وفي قبضتهن مع أنهم ناقصات عقل ودين »⁽⁵⁵⁾.

وأعجب الطهطاوي بأناقة المرأة الفرنسية وجمالها وبعض صفاتها الأخلاقية كلطفها وحسن مسيرتها و بشاشتها. وعندما تناول العادات السائدة في اللقاءات الاجتماعية تطرق إلى مكانتها في هذه المجتمعات وأنها موضع احترام وتقدير « والغالب أن الجلوس للنساء، ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء ». وبهذه الملاحظة حاول الطهطاوي أن يبرز المكانة الاجتماعية السامية للمرأة في المجتمع الفرنسي.⁽⁵⁶⁾ و أجاب الطهطاوي عن الاستفهام الذي طرحه محمد السعيد بن علي الشريف حول انقياد الرجال الفرنسيين لنسائهم إذ لم يقف الطهطاوي - الذي أشار إلى هذه القضية كذلك- في موقع المعجب بل يرى أن الفرنسيين مخطئين في هذه النقطة و قال: « غاية الأمر أنهم يخطئون في تسليم القيادة للنساء »⁽⁵⁷⁾.

ويبدو أن بيرم الخامس الذي لفت انتباهه وهو يزور إيطاليا وفرنسا العادات والتقاليد لاسيما حياة المرأة الأوروبية المتحررة في المجالس العامة والخاصة، لم يقف موقف الطهطاوي سلفه من إعجابه بالمرأة

الفرنسية. ذلك أن بيرم قد برز بوجه رجل الدين المحافظ والمتعلق بمقومات شخصية المرأة الإسلامية، فانتقد انتقادا لاذعا المرأة الإيطالية في مخالطتها للرجال ومراقصتهم دون خجل أو حياء قائلا: « وليس من عادتهم الحياء مثل ما عندنا، فترى البنات تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها... وترقص مع الرجال أمامهم... وترى إحدى النسوة الأعيان تغني وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة و مخاصرة وغيرها... بحيث أن المسلم الغيور يكاد ينفطر مما يرى... »⁽⁵⁸⁾.

ويسجل صاحب الصفوة قول رجالهم عن النساء المسلمات « بأن الذي حمل المسلمين على حجب النساء، مما في طباعهم من الخيانة وشدة الحجب تولد الشوق. وحيث أنا على خلاف ذلك فالأمن على نساتنا محقق والتي لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها »⁽⁵⁹⁾. ويظهر مما جاء في كلام بيرم بأنه دخل معهم في مساجلات فكرية فحاول تقديم بعض الاستدلالات العقلية المنطقية للرد على ما يقولون، ظهر ذلك في قوله: « أن موجب حجب أمر طبيعي في سائر البشر وفي سائر الحيوانات »⁽⁶⁰⁾.

وتتوافق نظرة بيرم الخامس للمرأة مع نظرة محمد السنوسي، إلا أن هذا الأخير تجنب الخوض في سلبات تقدم المرأة الأوروبية في رسالته " تفتق الأكماء "⁽⁶¹⁾ أو (رسالة في المرأة) والتي قال فيها عن المرأة الأوروبية: « أنها اليوم متعلمة مثقفة تحضى باحترام كبير هي به جديرة ». وقال في موضع آخر: « لقد نالت النساء الأوروبيات في القرون الأخيرة نصيبا من التثقيف والفن وأطلق عليهن لقب الجنس اللطيف، وهن أهل لما يكال لهن من ثناء ». ومع ذلك تمسك بحق الرجل في الطلاق وتعدد الزوجات. ويدل ذلك على أن إعجابه بالمرأة الأوروبية وتفتحه للحوار مع الديانة المسيحية وأصحابها لا يعنيان انحيازه إلى النمط النسوي الغربي، أو دعوته النساء المسلمات طريق التقليد لأسلوب عيش المرأة الأوروبية في عصره.⁽⁶²⁾ ويعتبر دفاعه عن الحجاب أبلغ دليل على مناهضة لمحاكاة الغرب في السفور. أما قضية المساواة بين الرجل والمرأة فأعتبرها السنوسي أنها مساواة ليست مطلقة بل هي محكومة بمكانة كل من الرجل والمرأة في الأسرة والمجتمع.⁽⁶³⁾ وفيما يخص قضية تعليم المرأة ومشاركتها في الحياة العامة، أقر السنوسي بوجوب تعليم المرأة تعليما دينيا ويدويا يتكفل به الرجل.⁽⁶⁴⁾

ومهما يكن فنزعة السنوسي في قضية المرأة تنزل تفكيره ضمن التيار المحافظ الذي يلتقي به السنوسي في نقطة جوهرية وهي غلبة تناول الفقهي لقضية المرأة على المعالجة الاجتماعية.⁽⁶⁵⁾ بينما نجد أن خير الدين التونسي تصادى تلك النقاشات والسجلات التي تطرق إليها معظم الرحالة العرب، فيما يخص قضية المرأة معتبرا ذلك بمثابة القضايا الهامشية التي تحجب الواقع الاجتماعي، ولذلك نظر إلى المرأة كفرد من أفراد المجتمع يجب أن يحظى باحترام الرجل و تقديره.

ونفس عبارات الاستغراب التي وظفها محمد السعيد بن علي شريف في وصفه لعلاقة الرجال بزوجاتهم تتكرر مع الصغار، إذ الرجال مغلوبون على أمرهم وأن « طاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في إتباع مرادهم أشهر من تذكر». والأدهى والأمر من ذلك كله أن: « الغيرة على أزواجهن نادرة جدا: فيرى الرجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملا فلا ينكر عليها، وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمنتزه أو فرجة».⁽⁶⁶⁾ ووصف الحجوي باريز فقال عنها ما ملخصه أنها، تلك التي ينعلم فيها الحياء وتخدش المروءة، ولا سيما النساء: « فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا سفاد الحيوانات في الطرق جهرا. فهذا شيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع».⁽⁶⁷⁾

أما خير الدين فقد أجرى مقارنة واقعية بين المرأة الأوروبية والمرأة الشرقية واكتشف أن الفرق الرئيسي بينهما هو قضية التعليم، ولذلك نادى بضرورة تعليم المرأة وتهذيبها لتكون زوجا صالحا للبيت ولتربية الأبناء الذين رأى فيهم مستقبل البلاد. وأبان في مقدمة كتابه غلط المسلمين المتزمتين الذين حجروا الدين ورفضوا كل اقتباس حسن من حضارة الأمم الغربية، واستنكر تخوف التونسيين والمسلمين عامة في عصره من تعلم المرأة واعتبر ذلك من أسباب تقهقرهم فقال: « ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة الإسلامية إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر في بعض البيئات في الأمم الإسلامية، وإن اختلفت درجاتها في الإصغاء إلى هذه الدعوة كالتخويف من تعليم المرأة... ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصارى والمسلمين إذا ما اجتمعوا في قطر واحد، كان النصارى أسبق إلى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها ».⁽⁶⁸⁾ ورغم ما أبداه من استنكار لعقلية المسلمين المتخوفين من تعليم النساء فإن عنايته بهذا التعليم كانت في المقام الأول في تفكيره، نظرا للجهل الذي كان يتخبط فيه السواد الأعظم

من الرجال والنساء في تونس زمن هذا المفكر. ويبدو واضحا هنا اتجاه خير الدين في ربط قضية المرأة بالجوانب الثقافية والعلمية للدولة، أنه ناتج من ملاحظته للفروق بين المجتمعات الغربية ومجتمعات الشرق الإسلامي ومن ثم إدراكه لضرورة التغيير الاجتماعي في العالم الإسلامي، والذي ارتبط في المجتمعات الغربية بما حققته من علوم مختلفة و ما أحرزته من أنماط ثقافية و فكرية. وهو ما كان محل نظره كذلك.

إذا كان جل الرحالة العرب من المشاركة أو المغاربة – أمثال الطهطاوي و الشدياق وابن أبي الضياف والصفار وحمدان خوجة...، وهم من الذين أقاموا بأوروبا لفترات، أو زاروها في مناسبات مختلفة، قد سلموا لها بالقوة واعترفوا لها بالحضارة خلال القرن التاسع عشر وهو ما يظهر من خلال مدوناتهم التي سجلوا فيها كل ما يخص الحياة الأوروبية. كل حسب طريقته وميله ونظريته. فإن خير الدين التونسي نفذ إلى أعماق العقل والفكر الأوروبيين و لم يكتف بوصف المشاهدات، و رأى في أوروبا الوسيلة الكافية لاسترجاع العرب لقوتهم التاريخية، حتى لا يقعون فريسة لها بل عليهم التعايش معها، والأخذ عنها و طلب مساعدتها.

ولذلك فقد دعا الحكومات والأفراد إلى الإقتداء بالأوروبيين مبينا لهم جميعا أن الاستعانة بعلماء الغرب وعلومهم المختلفة لا يتنافى ودعوة الإسلام إلى العلم، لأن الحضارة والمعرفة والعلوم ليست وقفا على شعب دون الآخر، بل إنها جاءت نتيجة تكامل الحضارات والجهود الإنسانية المختلفة، محاولا إقناعهم بأن علوم المسلمين وحضارتهم قد أسهمت في توصيل الغرب إلى ما وصل إليه فلولا العرب لما توصلت أوروبا إلى مستواها العلمي الحاضر.

الهوامش:

(1) اعتمدنا على نص رحلة الطهطاوي " تخليص الإبريز في تخليص باريز": المنشور كملحق في كتاب محمود فهمي حجازي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ط1، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1974م، ص 289.

(2) المصدر نفسه، ص 288.

(3) نفسه، ص 291.

(4) نفسه، ص 292.

- (5) محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأنصار والأقطار، ج2، تحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان 1997م، ص 46.
- (6) المصدر نفسه، ص 45.
- (7) نفسه، ص 46.
- (8) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
- (9) محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، ط1، تحقيق: علي الشنوفي، ج1، الرائد التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ص 13.
- (10) الشدياق أحمد فارس: الساق على الساق في ما هو الفاريق، تقديم وتعليق: نسيب وهيبة الخازن، الطبعة الرابعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1966م، ص 637.
- (11) أحمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الآمان، الباب 6، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، ط2، الدار العربية للكتاب، تونس 2004م، ص 150.
- (12) المصدر نفسه، ص 138.
- (13) أحمد جدي: « الإشكالية الاقتصادية في الفكر التونسي الحديث من خلال أحمد أبي الضياف وخير الدين باشا »، المجلة التاريخية المغربية، العددان: 55-56، ديسمبر 1989م، تونس، ص 71.
- (14) شارلمان: Charlemagne (742-814م) ملك فرنسا (768-814م)، من المناضلين في سبيل نشر النصرانية، أحقق في إفتكالك الأندلس من أيدي المسلمين، وأقام في آخر حياته علاقات تجارية ودية مع المسلمين وخاصة مع هارون الرشيد العباسي.
- (15) التونسي خير الدين: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ج1، تحقيق: المنصف الشنوفي، الطبعة الثانية، منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، تونس 2000م، ص 341.
- (16) يزيد الأمير عبد القادر عن هذين العاملين دور العلوم والمعارف فيقول: "لأن كل من كان تحصياله للعلوم، أكثر، كانت قدرته على كسب الجديد أسهل. لأنه مهما حصلت معرفة أخرى، وازوجت مع معرفة أخرى، حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى الإنتاج... كالذي لا راس مال معه فإنه لا يقدر على الربح. وقد يملك رأس المال ولكن لا يحسن صناعة التجارة، فلا يربح شيئاً..." أنظر:
- الأمير عبد القادر الجزائري: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم: عشراي سليمان، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص 63.
- (17) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 105.
- (18) جدي، مرجع سابق، ص 74.

- (19) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 317.
- (20) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 33.
- (21) السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 13.
- (22) بقيت التصورات الجبائية حتى القرن 19 م رهينة مفهوم العمران ويسبق مفهوم الاقتصاد في معناه الدقيق ، مما يؤول إلى القول أن الديمغرافيا كانت أساس الازدهار أو الانتصار، فعلى قدر تكاثر السكان يكون عدد الخاضعين للجباية.
- (23) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 422.
- (24) نفسه، ص 446.
- (25) نفسه، ص 309.
- (26) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 50.
- (27) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 101.
- (28) المصدر نفسه، ص 147.
- (29) ابن أبي الضياف، مصدر سابق، الباب 5، ص 96.
- (30) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 233.
- (31) المصدر نفسه، ص 285-286 .
- (32) نفسه، ص 284 .
- (33) الشدياق، مصدر سابق، ص 620.
- (34) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 288.
- (35) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 209.
- (36) السنوسي، مصدر سابق، ج1، ص 85.
- (37) الرحلة الأوربية لمحمد الحجوي، مخطوطة في قسم الوثائق والمخطوطات في الخزانة العامة بالرباط-تحمل رقم 115، قام سعيد بن سعيد العلوي بتحقيقها والتقديم لها، ثم نشرها كملحق في مؤلفه: أوروبا في مرآة الرحلة، ص 116.
- (38) المصدر نفسه، ص 116.
- (39) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 410.
- (40) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
- (41) نفسه، ص 329.
- (42) نفسه، ص 399.
- (43) نفسه، ص 404.

- (44) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 198.
- (45) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 478.
- (46) المصدر نفسه، ص 486.
- (47) نفسه، ص 489.
- (48) نفسه، ص 309.
- (49) المهدي الغزال: نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص ص 154-155.
- (50) ابن أبي الضياف، مصدر سابق، الباب 6، ص ص 104-105.
- (51) عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج3، ضبط وتصحيح: إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، لبنان 1997، ص 236. وللمزيد حول موقف الجبرتي من علاقة الرجال بالنساء، راجع:
- حسين عاصي: عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ الصدام الحضاري بين الشرق والغرب في العصر الحديث، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت 1993م، ص 24.
- (52) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 212.
- (53) المصدر نفسه، ص 187.
- (54) الشدياق، مصدر سابق، ص 581.
- (55) محمد السعيد بن علي الشريف: « الرحلة الخيرية فيما عاينه ناظمها بير فرانسيس »، جريدة المبرش، العدد رقم 130، بتاريخ 08 رمضان 1269هـ/ 15 جوان 1853م، ص 4.
- (56) الطهطاوي، مصدر سابق، ص 211.
- (57) المصدر نفسه، ص 212.
- (58) بيرم الخامس، مصدر سابق، ج2، ص 41.
- (59) المصدر نفسه، ص 41.
- (60) نفسه، ص 42.
- (61) رسالة كتبها السنوسي نصها الأصلي مفقود، ولقد حرص علي الشنوفي على نشر ترجمتها الفرنسية التي ظهرت سنة 1897م مشفوعة بتعليق في (المجلة التونسية). وفي إطار اعتناؤه بآثار السنوسي حلل بعض مؤلفاته، ومنها هذه الرسالة، في رسالته الجامعية باللغة الفرنسية: "مفكر تونسي من أهل القرن 19م، محمد سنوسي، حياته و آثاره.
- (62) Ali Chennoufi : un Savant Tunisien du XIX siècle, Mohamed Assnoussi : Sa vie et son œuvre, publication de t'université tunisienne 1977 , P.121.

- (63) نور الدين الجريبي: « تفتق الأكمام، رسالة محمد السنوسي في المرأة »، مجلة الحياة الثقافية، العدد رقم 52، السنة 1989م، منشورات وزارة الثقافة، تونس، ص 07.
- (64) Chennoufi : Op. cit, P 135.
- (65) الجريبي، مرجع سابق، ص 13.
- (66) محمد الصفار: رحلة الصفار، مخطوط في الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 113، الورقة 70.
- (67) الحجوي، مصدر سابق، ص 131.
- (68) التونسي، مصدر سابق، ج1، ص 189.